حوّاء.. الحكّاءة الأولى

حول العلاقة بين المرأة والحكاية الشعبية

هيا صالح *

■ ليس من المستغرب أن يذهب بعض علماء الكلام، واللغويين، والمؤرخين أيضاً، إلى القول إن حوّاء (الأنثى) هي أول من اخترع الكلام، أو إنها الحكّاءة (أو الحكواتية) الأولى، إذ إن الدور الذي مارسته المرأة –ولا تزال– منذ بدء الخلق، في الاعتناء ببيتها وأسرتها، تطلّب، في سبيل تحقيقه، وسيلة اتصال مع محيطها الاجتماعي أكثر سهولة ويسراً من الإشارات والرموز، بخلاف الرجل الذي ظل منشغلاً بتأمين الاحتياجات الأساسية لأسرته، عبر الصيد، وتوفير الطعام والماء، وغيرهما، مما تجود به الطبيعة، وبالتالي لم يكن أثناء تأديته لهذه الوظائف محتاجاً، كما المرأة، إلى "الكلمة" أو "العبارة"، للتواصل مع مفردات الطبيعة من حوله.

ولعل هذا هو التفسير الأنسب والأكثر تبريراً وإقناعاً لشغف المرأة بالكلام –حتى إن بعضهم يَسِمُها "الثرثرة" بالإطلاق، دون مراعاةٍ للفروق بين واحدة وأخرى– وممارسة "الحكي" أكثر من الرجل، حتى وقتنا الحالي، لما يتطلبه دورها الحيوي في الحياة من حوارات مستمرة داخل الأسرة مع زوجها وأطفالها، أو خارجها، مع الآخرين في محيطها.

وفي مرحلة لاحقة، خرج الكلام من نطاق التعبير عن الحاجات الأساسية للإنسان، ليصبح الوسيلة الأكثر نجاعةً في الاتصال والتعبير عن الفكر الإنساني، وما يعتور الذات البشرية من مشاعر وأحاسيس، والاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين، ونقل ما في المخيلة من رؤى وتصورات ذات بعد أسطوري وغرائبي، والتأشير على سعي الإنسان الدائم لاكتشاف الكون من حوله، والتعرّف إلى كُنْهِ القوة العظمى التي تحركه. وبذلك، تشكلت النواة الأولى للحكاية، فيما الناس يتناقلون الأخبار والأحاديث عن بعضهم بعضاً، وعن الأقوام الذين سبقوهم.

وأول ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن العلاقة الوطيدة، والأصيلة، بين المرأة والحكاية، شخصية شهرزاد في "ألف ليلة وليلة"، حيث كانت شهرزاد تقوم بسرد الحكايات، الواحدة تلو الأخرى، في كل ليلة، على شهريار الملك، كوسيلة تحمي بها نفسها من سيفه، وهو الذي كان يقتل الحسناوات من بنات شعبه، بعد زواجه منهن، وفي ليلة الزفاف.

وبما أن الأحداث والأفكار كانت تنتقل من جيل إلى آخر عبر الحكي (شفاهة) قبل أن يعرف الإنسان التدوين والكتابة، فلا بدّ أن الدور الأكبر في الحفاظ على "الحكاية" بوصفها التعبير الحقيقي للذاكرة الشعبية، كان للمرأة، عبر سردها الحكايات مراراً وتكراراً لأبنائها، وأحفادها، حيث كانت الحكايات الوسيلة المثلى لتسلية الصغار قبل النوم، في ظل غياب وسائل الترفيه المختلفة التي لم يعرفها الإنسان سوى في فترة قريبة، كالاذاعة والتليفزيون، بما يجعل المرأة تستحق، وعن جدارة، النظر إليها باعتبارها سادنة "الحكاية"، وحارسها من الضياع عبر الزمن.

ومن المؤكد أن حكايا الأمهات اللواتي كنّ - ولا يزلن - يروينها لأطفالهن، تثري خيالهم، وتنمّي قدراتهم العقلية، وربما كانت الحكايا خطوة لا بد منها للوصول إلى الاختراعات العظيمة، فلو لم يحلم الإنسان بأنه يطير كالطيور مثلاً، ويغذّي هذا الحلم بمحاولاتٍ متكررة لصنع أجنحة يحلق بها عالياً في السماء، لما توصّل إلى اختراع الطائرة، ولو لم يحاول التسلق إلى القمر لما اكتشف المركبات الفضائية، وعرف أسرار الكون وخفاياه.

لكن الأمر لم يكن يخلو من إضافة هنا، أو حذف هناك على متن الحكاية، بما يتفق وأهداف ومرامي الشخص الذي يقوم بفعل الحكي، ولذلك ظلت المخيّلة الشعبية مشتعلة، تحوّل ما هو حدث عادي إلى أسطورة يصعب تصديقها، لعدم واقعيتها، لكن يجري الإيمان بِها والتعاطي معها على أنها جزء من المعتقد الذي تتخلله كثير من الغيبيات. وبمرور الزمن تولدت حكايا جديدة من الحكايا القديمة، واصطبغت حكايا سابقة بألوان ليست لها، وتعددت التفاصيل في الحكاية الواحدة، وظلت المرأة / الحكّاءة توقد جذوة الحكاية، بما تضيفه من مخيلتها الجامحة، إلى متن الحكاية أو أصلها.

وظهرت حكايا، جرى تداولها على نطاق شعبي واسع، تتضمن أحداثاً كانت يد المرأة المحرك الأساسي لها، أو السبب الرئيسي في وقوعها، بدءاً من إشعال فتيل الحروب، وانتهاءً بصنع الأحداث العظيمة، فلولا عبلة ما كان عنترة العبسي من أعظم فرسان التاريخ، ولولا "البسوس" لما نشبت حرب لم تخمد أوارها على مدار عقود من السنين، ولولا شهرزاد لما تغيّرت طريقة تفكير شهريار وتغيّر أسلوب حكمه لشعبه.. والقائمة لا تنتهي.

■ اللوحة للفنانة هالة الموسوية

وتتضمن الحكاية الشعبية أحداثاً وكائنات حقيقية، مثلما تتضمن أحداثاً وكائنات من صنع الخيال الإنساني، لا علاقة لها بالواقع أو المنطق، وحسبُنا أن نذكر هنا نماذج من أبطال الحكايات الشعبية التي لا تزال متداوَلَة بين الناس حتى زمننا هذا، مثل حديدوان، ونُص نصيص، والشاطر حسن، والغولة، وعقلة الإصبع... إلخ. وتتأثر نسبة الخيالي أو العجائبي داخل الحكاية، إلى الواقعي أو الحقيقي، بطبيعة العصر (أو المرحلة) الذي تُروى فيه الحكاية، والأفكار أو "الرسالة" التي يُراد إيصالها للناسِ من خلالها.

وقد كانت الحكاية تروى في العصور السابقة، شفاهةً، وبالفصحى، التي كانت اللغة الدارجة في حياة العرب اليومية، إلا أن فصاحة الحكاية، لم تؤثر في "شعبيتها"، لكنها في العصور الأخيرة، ازدادت "شعبيةً" فوق "شعبيتها" الأولى، عبر انتقالها من الفصحى التي أصبحت ثقيلة على لسان الإنسان العربي المعاصر، إلى اللهجات المحكية الدارجة والتي شاعت بعد اختلاط العرب بأبناء الشعوب والأمم الأخرى، مما جعلها أكثر قرباً من الناس، وأكثر تعبيراً عنهم، ومنحها مكانةً خاصةً من بين الفنون الشعبية الأخرى.

وكانت الحكايةٍ قد أصبحت بعد عصر التدوين فناً مستقلاً بذاته، إلى جانب الفنون الأدبية السردية والشعريةِ الأخرى، وهي تقومِ على السردية حيناً، وعلى الشعرية حيناً آخر، وربما تجمع بين الطرفين. وقد زاد الاهتمام بالحكاية في ظل ازدهار حركة الترجمة منذ العصر العباسي، وتسرّب الحكايات الفارسية والهندية إلى الأدب العربي، فكان أن ترجم ابن المقفع كتاب "كليلة ودمنة" لبيدبا الفيلسوف عن الفارسية، وكتب سهل بن هارون حكايات "ثعلبة وعفرة" أي "الثعلب والنمر"، وكان هذان الكتابان، على وجه الخصوص، من أوائل الكتب التي أُفردت للحكايات بشكل خاص، وفتحت الأبواب أمام هذا الفن الأدبي الذي أصبحت له سمات خاصة وصفات تميزه عن غيره من الفنون.

ورغم أن الحكايا المتضمنة في هذين الكتابين وغيرهما جاءت بلغة عربية فصيحة، إلا أنه بدأت تظهر كذلك الكتب التي دوّنت الحكايات الشعبية كما هي، أي كما تُروى في اللهجات المحكية، وقد وجدت هذه الكتب لها طريقاً ورواجاً بين الناس، يتناقلونها جيلاً بعد آخر، ويحوّرون ما فيها من حكايات، وفق ما يقتضيه الظرف أو الزمن الذي يعيشون فيه.

وتعكس الحكاية الشعبية، بما تحمله من مضامين وثيمات، المناخ الفكري ومدى التطور الحضاري للمجتمع الذي أُنتجت أو وُلدت فيه. وإذا كان الرجل قد سيّر الحكاية الشعبية منذ القدم، باتجاه تصوير مغامراته وبطولاته، في الغالب، فإن المرأة لم تجد بدّاً من تمجيد هذه المغامرات والبطولات، والثناء عليها، وتخليدها، عبر فعل "الحكي" الذي جعل هذه الحكايات حيّة إلى يومنا هذا، بما فيها من نماذج إنسانية تحمل قيماً إيجابية تُحتذى، تقف في وجه الشر، وترفض الظلم والطغيان، وتسعى إلى الحرية.

ورغم الدور المهم الذي من المؤكد أن المرأة لعبته في الحفاظ على الحكاية الشعبية، قبل التدوين، إلا أنه تم تجاهلها في فترة التدوين، التي أتت، فقط، على ذكر القصاصين والرواة الرجال الذين راجت مهنتهم تلك في العهد الأموي، بشكل خاص، والذين كانوا يستمدّون حكاياهم من القرآن الكريم والنصوص الدينية، أو من أخبار الفرس وأساطيرهم.

وربما يعود التركيز على ذكر رواة الحكاية الشعبية من الرجال، إلى اتخاذ مجموعة من الرواة من فن الحكاية مهنةً يمتهنونها، خصوصاً وأن عدداً من القادة والخلفاء قربوا هؤلاء الرواة إليهم في مجالس السمر، فضلا عن أن هؤلاء الرواة كانوا يروون حكاياتهم على جمع غفيرٍ من الناس، وقد طالت شهرة بعضهم عدداً من البلدان العربية والأعجمية، بينما ظلت المرأة تمارس روي الحكاية على نطاق ضيق، لا يتجاوز أفراد أسرتها أو المقربين لها.

وقد اتسمت الحكايات الشعبية بعدد من السمات الفنية، منها الافتتاحية المتوارثة التي تستهل بها الحكاية "كان يا ما كان، في قديم الزمان" دون إشارة حقيقية تدلنا على زمن الحكاية، أو مكانها، وتختتم بـ"طار الطير والله يمسيكوا بالخير" أو ما يماثلها من عبارات تدل على زمن انتهاء سرد الحكاية، وهو في الغالب وقت المساء، حيث يجتمع الناس لـ"التعليلة" والسمر، ناشدين المتعة والراحة والترفيه عن النفس.

ومن مصادر الحكاية، إلى جانب خيال الراوي، أو المخيال الشعبي الذي لا حدّ له، الأساطيرُ القديمة، والقصصُ الواردة في الكتب السماوية، والأحداث الحقيقية، والخرافات المتوارَثة، وغيرها. ويتم تقديم الحكاية الشعبية، في الغالب، بلغة بسيطة واضحة المعالم، هي لغة الإخبار التي يفهمها الناس على اختلاف مستوياتهم العمرية، والإدراكية، فتجذب انتباههم وأسماعهم إليها، في أجواء حميمية، يلتف فيها المستمعون حول راوي الحكاية، ويسرحون بخيالاتهم إلى عوالم شاسعة، وآفاق رحبة لا حدود لها.■

كاتبة من الأردن.
hayasaleh@gmail.com

الذاكرة المثقوبة

حسن حميد *

هانحن، مرة أخرى،
نُثبت أن ذاكرتنا الثقافية مثقوبة أو تكاد، وأن وعينا الثقافي يتبدل، ويتغير، ويتلوّن وفق الطقوس والحالات والظروف، وأن ثوابتنا الثقافية تطوى أو تحيّد بالإهمال والنسيان واللامبالاة.. وأن جبهتنا الثقافية التي لم تعرف أن التنظيم، والفعالية، والمعرفة، والإبداع، والمكان الجغرافي العامر بالاجتماعي.. هي محركات قوة وتفوق.. تُخترق، وتنحني أمام صمود واستمرارية الثقافات الأخرى.. وبهذا فإن الغزو الثقافي الذي يعني الهيمنة على منظومتين أساسيتين في حياة أي مجتمع، هما: المنظومة المعرفية، والمنظومة القيمية.. صار مرحباً به أمام ذاكرة ثقافية مثقوبة، وجبهة ثقافية متصدعة..

أقول هذا، وأنا أرى الإقبال المحموم على ترجمة كتب ثلاثة من رموز الثقافة الذين عادوا مفهوم الإنسانية، ومفهوم السلام، ومفهوم حرية التعبير والمعتقد. أعني بهؤلاء الثلاثة: جون شتاينبك، وجوزيف كونراد وسلمان رشدي. الثلاثة قالوا بوحدانية الثقافية الغربية، وبوحدانية الإبداع الأصيل المحصور في الرجل الغربي، وأن الثقافة منقسمة إلى عالمين: عالم مبدع، وعالم غير مبدع، عالم نور، وعالم ظلمة، وأن الأول يعيش الإبداع، والثاني عالة عليه.

وللتوضيح أقول، إن جون شتاينبك الذي تتسابق دور النشر، في أيامنا الراهنة، على طباعة أعماله، وهي لاشك أعمال أدبية فيها من النضج الفني ما فيها، ولكنها تحمل أنفاساً ثقافية استعمارية لا تقل عن الأنفاس العسكرية المؤمنة باستعمار الآخرين، قال وهو يركب في إحدى الطائرات الأمريكية، في أثناء قصفها للقرى والمدن الفيتنامية.. إنه يشعر ويتذوق جمال الموسيقى الأميركية التي تعزفها الصواريخ الأميركية المنقضة على البيوت الفيتنامية. وأن الإنجليزي الأصل، البولوني الجنسية، جوزيف كونراد مدحٍ الاستعمار الغربي، الإنجليزي خصوصاً، للبلاد الإفريقية، والبلاد العربية، والهند، ونادى بفردانية الرجل الغربي وتميزه لأنه من طينة الخزف، بينما الآخرون من طينة الوضاعة. ولعل روايته (قلب الظلام) التي تهلل للاستعمار القادم إلى أفريقيا (بيت الظلمة العالمي)، كما أحب أن يوصفه، كي يبدد العتمة.. هي خير مثال على عدوانيته ومناداته بمشروعية استعمار الغرب لأفريقيا وآسيا.

أما سلمان رشدي، فهو الطالع من الدين الإسلامي تربيةً وعقيدةً.. ليتقوّل تحت املاءات الغرب، واستجابة لمعطيات ذهنيته.. على الإسلام، ونبي الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) ما يحول الحياء المعرفي من ذكره. وأظن أن ما من أحد يقرأ ويكتب في العالم إلا وسمع بأقوال سلمان رشدي ودعاويه التي تجعل للظلام أصابع، وللأحقاد أقداماً.. وقد نتجت جرأة سلمان رشدي المبنية على التقول ليس من طبيعة الحرية المتوافرة في البيئات الغربية، وإنما من كتاباته السابقة التي شنعت بالمجتمع الهندي، بلده الأصل، واتهمته بما لا يليق بالأوطان من أوصاف ونعوت..

أعرف أن هؤلاء الثلاثة رموز ثقافية لها حضورها ومكانتها الاعتبارية في الكتابة والإبداع والرأي.. ولكن هذا كله لا يمنع المرء من استبطان ما امتلأت به تضاعيف كتبهم التي لا ترى إلا بعين واحدة، الغرب، والحضارة الغربية وحسب.

إن حضور الذاكرة الثقافية، والثوابت الفكرية، والإيمان بأن الإنسانية صفة للبشرية كلها، وليس لجهة منها، وأن الحريات، وحقوق التعبير.. للجميع وليس لطائفة، أو مجتمع،.. وأن العدوانية منتج للعقول المريضة.. كل هذا، إن بدا وتجلَّى، يحول دون شيوع الأنفاس الحامضية في الأدب والثقافة.. ذلك لأن السيف والقلم لا يلتقيان إلا على الحق. ■

* كاتب فلسطيني